**ميتافيزياء الرأسمالية»: أن ترى الواقع كما هو [1]**

﻿

**عامر محسن**



*«لقد كُتب الجزء الأكبر من هذا المخطوط قبل زمنٍ ليس بالقليل. وتبعت ذلك مرحلةٌ طويلة من الصّراع، شديدة الإيلام، مررت بها وهي لم تزل بعيدة عن نهايتها. مع كلّ يومٍ جديدٍ يمرّ، يبدو وكأنّ حياتي بأكملها هي بمثابة تصديقٍ على الحجج التي أعرضها في هذا الكتاب. من المفترض أن يكون في ذلك مبعثٌ للرضا، هذا لو أنّي أقدر على النّظر الى المسألة من خارجها. ولكنّني في الدّاخل: والأمر متعبٌ، ولا نهاية له تلوح»*
**من مقدّمة الكتاب**

توجد في الحياة الفكرية قاعدةٌ أساسية، مختصرها أنّه ــــ بالمعنى الفلسفي والمعرفي ــــ يجب أن تُبقي «أوراقك على الطاولة» باستمرار. أي أن تظلّ مستعدّاً، على الدّوام، لاحتمالية أنّ ما تؤمن به وتبني على أساسه هو خطأ.

وإن لاقيت نصّاً يدّعي دحض ما تعتقد به، فرد الفعل الواجب هو ليس أن تشيح عنه، أو تقرأه بدفاعية وسلبية، بل أن تتحمّس لتصفّحه واستيعاب الحجج المقابلة، ووزنها ومقارنتها بنظريتك، ومعرفة ما إن كانت تتحدّى، بالفعل، أُسسك الفكرية وستدفعك الى تعديلها، أو تغييرها، أو إعادة النظر بها.
هذا، تحديداً، هو التّحدّي الذي يطرحه الباحث الايطالي أندريا ميكوتشي، على الجّميع، في «ميتافيزياء الرأسمالية». في هذا الكتاب، وفي أكثر أعماله، يدفع ميكوتشي بأنّنا جميعاً على خطأ، الثوريين والماركسيين منّا قبل الليبراليين والرجعيين، وأننا نساهم كلّنا في بناء سجنٍ من ميتافيزياء ووهم، هو ما نصطلح على تسميته بالحالة الرأسمالية. حتّى أنّ المفكّرين الّذين فهموا التأثير المأساوي للنظام الحالي على الانسان، يقول ميكوتشي، وكيف يسحق الفرد والمجتمع ويقمع امكانات الحرية، لم يتمكّنوا من التحرّر من ميتافيزياء الرأسمالية ولغتها ومنطقها. التّحدّي الحقيقي أمام الانسان والفلسفة، اذاً، هو في التّحرّر من هذه «الغلالة» النّظريّة، المضلّلة، التي بناها الانسان وسجن نفسه داخلها. الهدف هو أن نعرف «الواقع» كما هو، «الحقيقي» و»المادي» و»الطبيعي»، الذي نلمسه ولا نعقله، تاريخنا الحقيقي وقصّة حياتنا وعالمنا (ومأساتنا)؛ فالتغيّير والتحرّر لن يكونا ممكنين حتّى نتعلّم أن نعي الواقع كما هو ونتّصل به (بدلاً من تمثيلات نظرية مضللة عنه)، ونفهم كم هو بائسٌ وقاسٍ وسهل التغيير. هذا، باختصار شديد، هو النّقد الذي يفصّله ميكوتشي على طول صفحات كتابه ــــ أحد أكثر الأعمال إثارة للكآبة التي يمكن أن تجدها في ميدان الفلسفة.
لا بدّ في البداية، من توطئة فلسفية مبسّطة تشرح منطلق ميكوتشي، وهذا ضروري لفهم حجّته: بالمعنى الابيستومولجي ــــ أي أساس الأساس في بناء الفرضية الفلسفية ــــ يعتمد الكاتب الايطالي نظرةً «فوضوية» الى الواقع. هذا لا علاقة له بالفوضوية كمذهب سياسي، نحن نتكلّم هنا على خيارات ينطلق منها المفكّر في فهم العالم والأشياء. من الممكن أن ترى العالم بشكلٍ بنيوي، وتستخرج وتصوغ بنىً نظرية (الطبقات، الحداثة، الخ) وتعتبر انّها هي ما يحرّك التاريخ، ومن الممكن أن تؤمن بميتافيزياء دينية وخطّة الهية، ومن الممكن أن ترسم العالم على أنّه خريطة لغوية وخطاب. هناك خيارات فلسفية كثيرة. ميكوتشي، من هذا المنطلق، يعتمد (ومعه كثر) نظرةً «فوضوية» تعتبر أنّ التاريخ لا يعمل وفق نظامٍ أو قوانين، وأنّ ايجاد صلات سببية بين الأحداث لتفسيرها ومنطقتها والتنبؤ بها (كالنزعة لتحويل الدراسات الاجتماعية الى «علم») هو محض وهمٍ، وأنّ كلّ من جرّب التنظير لعمل المجتمع البشري وتخريج «قوانين» له قد طاش، فلا شيء «خلف» الكون الّا الطبيعة، ومجرى ــــ لا منطق له ــــ للأحداث، والصدفة البلهاء.
هذا المنطق «الفوضوي» له قوّة معتبرة في العالم الفلسفي، خاصّة إن أردت أن تجادل أحدهم وأن تهدم نظريته، فمن الصّعب اليوم أن تركز أي نظريّة على قاعدة صلبة ــــ ليست جوهرانية، وليست ثقافوية، وليست بنيوية، ولا تقوم على فكرة العرق والأمة ــــ فكلّ ما سبق من شبه المستحيل الدفاع عنه، أو اثباته، فلسفياً (احدى زميلاتي في بيركلي، وهي من أصلٍ ايراني، كانت تبدأ صفّها بأن تشرح للطلّاب ــــ الجدد، الشباب، المتحمسين ــــ بأنّه، بالمقياس الإحصائي، فإنّ القدرة التنبؤية للعلوم السياسية توازي تماماً قدرة علم الأبراج). غير أنّ هذه النظرة لا تلزمك بمواقف فكرية أو سياسية محددة: يمكنك أن تكون «فوضويا فلسفياً» وليبرالياً وسطياً، مع تحفّظات حول الادعاءات النظرية للّيبرالية، أو ماركسيا متحفّظاً، لا يؤمن حقّاً بـ»حركة التاريخ». بل إنّ هناك نظرية جدّيّة في أنّ بعض آباء الفكر المحافظ الحديث، كليو ستراوس، كانوا ملحدين وغير جوهرانيين، الا أنّ قناعاتهم السياسية، ومشاهداتهم للحرب العالمية ومدى شراسة الانسان حين يصبح بلا قيد، دفعتهم لكتابة نظرية دينية مُحافظة، تلجم المجتمع وتؤسس لقواعد أخلاقية عليا بين أفراده تستند على تراثه المسيحي ــــ اليهودي.
الّا أنّ ميكوتشي يأخذ هذه الفرضية الى مكانٍ راديكاليّ، والهدف بالنسبة اليه مزدوج: أن نتخلّص من الصّورة الميتافيزيائية عن العالم التي ورثناها، والتي تمنعنا من معرفته وتغييره، واعتماد فلسفة «طبيعية»، تقوم على التواصل مع «المحسوس» و»الطبيعة». والطبيعة، على عكس النماذج النظرية، لا يمكن التحكم بها، وهي ليست قابلة للتنبؤ. الطبيعة، في عرف ميكوتشي، ليست ديالكتية، بل هي مليئة بلحظات القطع، والاختفاء، والصدفة، والمفاجأة. هذا هو «الواقع» الذي يحيط بنا، وكل محاولة لـ»فهمه» عبر تنظيمه وعقلنته وتحويل حركته الى قوانين، هي ميتافيزياء، تمنعنا من الاتصال به وتغييره ــــ حتى ولو افترضنا أننا نعمل ضد الرأسمالية وضد النظام. أن تفهم هذه «الطبيعة»، يقول ميكوتشي، هو تحدٍّ في ذاته، إذ عليك أن تتحرّر أوّلاً من الّلغة التي نستخدمها لفهم العالم والمجتمع (سوق، قيمة، ناتج وطني، الخ) قبل أن نتمكّن من فتح السّتار وملامسة الواقع البسيط والتعرّف اليه كما هو. يعترف الكاتب بأنّ هذه العملية قد تحتاج الى أدوات غير اعتيادية، ومن خارج اللغة الفلسفية المألوفة، وهو ينصح القرّاء بتمارين من نوع أن يوقفوا القراءة، وأن يغلقوا عيونهم، أو يحدّقوا في الأفق، حتّى يفهموا ما يقصد عن المسافة بين النظرية والمحسوس (أنا جرّبت ولم يحدث شيء، ولكن في وسعكم أن تحاولوا).
سنشرح في الجزء الثاني من هذا المقال كيفية تطبيق ميكوتشي لنظريته النقدية، ولكن يكفي هنا أن نعرض مثالاً لما يقصده حين يتكلّم عن وقوع أعداء الرأسمالية في فخّ منطقها. في عصر الحداثة الصناعية، يكتب ميكوتشي، اكتشف النّاس أنّه قد فُرض عليهم نمط عملٍ قاهر للإنسان، يسلبك حريتك وكرامتك، بل وقدرتك على التحكّم بجسدك ووقتك؛ وتشعر، مع مرور السنين، بأنّ حياتك القصيرة تضيع في دورةٍ لا مغزى لها ولا هدف أسمى. ماذا يفعل الاشتراكيون هنا؟ بدلاً من مقاربة ثورية حقيقية لموضوع العمل، والواقع البائس لملايين البشر، يقوم الاشتراكيون بإنشاء النقابات، وتنظيم العمّال، والمطالبة بظروفٍ أفضل ورواتب أكثر وتمثيلاً سياسياً. فـ»يحسّنون» الرأسمالية، ويشاركون فيها، ويقلّدون أنظمتها وأنماطها. بل إنّ الاشتراكيين، من موقعهم هذا، يبدأون بالإعلاء من شأن العمل، ويؤكّدون على حتميته وضرورته، ويجعلون الوظيفة «فعلاً نضالياً». هذه هي الحلقة المفرغة التي يشتكي منها ميكوتشي، ويدّعي أن التحرّر يبدأ بكسرها.
(يتبع)

رأي

العدد ٢٩٦١ الاربعاء ١٧ آب ٢٠١٦

**ميتافيزياء الرأسمالية»: أن ترى الواقع كما هو [2]**

﻿

**عامر محسن**



*«... لهذه الأسباب، فإن هذا الكتاب ليس لأولئك الذين يحتفظون بحيوانات أليفة في منازلهم، أو الذين يشوّهون أنفسهم إزاء الطبيعة، كحالة النباتيين الملحدين؛ أو أولئك الذين يعتقدون بإمكان إيجاد توازنٍ طبيعيّ ما والدفاع عنه… هذا الكتاب ليس للّذين يملكون أفكاراً من أي نوع حول الجنس، بدلاً من فهمه على أنّه رغبات آنية وجامحة.*

*وليس للّذين يتركون آثار أقدامهم في الثلج، أو يقطفون الزهور، أو الذين يُخرجون كلبـ»هم» للتنزّه، ليتفرّجوا عليه وهو يتمشّى ويتبرّز، معتقدين بأنّه يعشق هذه الحياة.
هذا الكتاب، بكلمات أخرى، ليس للباحثين عن تناغمٍ في الكون والأشياء، وليس للذين يقدرون على التعبير عن مشاعرهم أو حتى على التفكير بها، والذين يطمحون الى التنبؤ بما سيحصل تالياً… هذا كتابٌ لمن يؤمنون بأنّ ما حولنا أكثر بكثير مما يمكننا التنبؤ به وفهمه، والّذين يتوقون بتحرّقٍ للتعرّف على هذا الواقع».
من الفصل الأوّل*

بالنسبة الى أندريا ميكوتشي، فإنّ التّشبيه الأكفأ حتّى نفهم عمل النّظام وكيف يولّد واقعاً «زائفاً» نرى العالم من خلاله هو الكمبيوتر. الكمبيوتر، يقول الباحث الايطالي، آلة غبية، لا تعرف الّا أن تعدّ حتّى الواحد، وهو آلة جرداء، لا تفكّر ولا تحسّ ولا تملك أبعاداً؛ ولكنّ الكمبيوتر، ضمن حدوده هذه وبلغته البسيطة، يقدر على «تمثيل» أيّ واقعٍ تريده، يمكنك أن تدخل فيه أية معطيات، وهو سيحوّلها الى صورٍ ونصوصٍ ونماذج وينتج «تشبيهاً» للواقع. ما فعلته البشرية، منذ أيام هيغل، هو أنّها اعتمدت خطاباً وفلسفةً تشبه لغة الكمبيوتر هذه، وسجنت نفسها داخلها. يسمّي ميكوتشي هذا الخطاب ــــ اصطلاحاً ــــ «الرأسمالية كما نعرفها»، وهذا تمييزٌ مهمّ، فنحن هنا لا نتكلّم على الرأسمالية كـ»واقع» حقيقي يوصّف حياتنا (ولا كنظرية)، بل على مفهومٍ «ميتافيزيائي» عن الرأسمالية (أنتجه «كمبيوتر» محدود، صمّمه هيغل) وهو يحكم افتراضاتنا عن العالم والتاريخ.
لا بدّ من التعريج هنا على نقد ميكوتشي للديالكتيكية كمنهجية لفهم التاريخ. إن كانت «الرأسمالية كما نعرفها» هي الكمبيوتر، في تشبيه ميكوتشي أعلاه، فإن الديالكتيك هو «البرنامج» الذي يشغّل هذا الجهاز وينتج «تنظيراته» عن الواقع. بالمعنى الفلسفي، فإنّ كتاب ميكوتشي، في عمقه وأساسه، هو نقدٌ للديالكتيك الهيغيلي والماركسي، فيقدّمهما كوجهين لعملةٍ واحدة، وكوهمٍ لا مبرّر فلسفيّا له بأيّ شكلٍ من الأشكال (لماذا على الأمور أن تتطور بشكلٍ «ديالكتي»؟ لا النظرية ولا التاريخ يبرران ذلك)، غير أنّ هذا «الوهم» يسمح لنا بـ»تنظيم» التاريخ عقلياً، والتنظير حول عمل الأشياء، والتنبؤ بمسارٍ لها. مشكلة الديالكتيك والعلم البرجوازي (والماركسي)، بالنسبة الى ميكوتشي، هي ليست أنّه «نظرية سيئة»، ولا أنّه «توصيف قاصر» للواقع، بل ــــ تحديداً ــــ في أنّه ليس نظريةً بحتة ولا توصيفاً بحتاً، انّما في مرتبةٍ بين الاثنتين. النظرية الميتافيزيائية (الديالكتيك)، اذاً، تبني «جسوراً» مع الواقع وتدّعي تمثيله وتفسيره والتنبؤ به، فلا تبقى في إطار النظرية، وينشأ لدينا شيءٌ مثل علم الاقتصاد السياسي، يحوّل الأحداث والأمور حولنا الى «تنظيرات»، كفكرة «السوق»، «القيمة»، «العملة»، الخ… يراها مادية وحقيقية وأزلية، فيما هي ليست الّا فكرة نظرية ممسوخة (يستخدم ميكوتشي تعبير hypostatization، التي لم أجد لها ترجمةً وافية بالعربية، وهي تعني ايضاً reification، أي التعامل مع مفهوم نظري على أنّه واقع مادي، وهو خطأ فلسفي شائع).
بالمعنى العملي، التقريري، يعتبر ميكوتشي أنّ اثبات خطأ «الرأسمالية كما نعرفها» سهلٌ وبيّن، بل وبديهيّ: يكفي أن ننظر، لبرهة، الى الواقع من حولنا. من المفترض أننا نعيش في عالمٍ يشكّله «السوق»، مثلاً، ولكن الدول والأمم اليوم أكثرها من مخلّفات القرون الوسطى والعهود الاقطاعية. من المفترض في عالم الرأسمالية، منطقياً، أن تصعد ايديولوجيا كوزموبوليتية تهمّش الهويات الصغرى وكلّ ما لا يستوعبه «السوق»، ولكننا محاطون بحركات قومية واثنية وطائفية. وما معنى استمرار أفكار السيادة والقومية أصلاً، يقول ميكوتشي، في ظلّ وجود سوقٍ عابرٍ للحدود؟ «الرأسمالية كما نعرفها» في مكان، والتاريخ والطبيعة في مكانٍ آخر تماما.
لهذه الأسباب، يمضي الاقتصاديون أغلب وقتهم وهم يشرحون «الاستثناء»، ولماذا لا يعمل السوق كما يجب، ولا يتطوّر التاريخ كما يفترض به أن يتطوّر، ولا يتحرّك الاقتصاد وفق النماذج النظرية؛ وفي «الرأسمالية كما نعرفها» لا شيء يسير وفق النظرية (اصلاً، يقول ميكوتشي، حتى يكون لـ»تنظيرات» الاقتصاد السياسي تطبيق عملي، فإن هذا يجب أن يتمّ في حالة «توازن» للسوق، أي نقطة جمودٍ وانعدام حركة، وهذا ــــ في التاريخ الفعلي ــــ مستحيل التحقيق). بدلاً من التنظير للواقع، يدعو ميكوتشي الى فهمه كما هو: لا يوجد شيء اسمه «قيمة»، «قوة عمل»، «سوق»، كفئات تخترق التاريخ وتعني الأمر نفسه على مرّ العصور، بل هناك ــــ ببساطة ــــ عمّال، بشرٌ، حوادث، صدف، ونقود. كمثالٍ عملي، بدلاً من محاولة فلسفة فكرة النّقد والقيمة المفترضة التي تختبىء خلفه، ورؤية المال كـ»انعكاسٍ» لشيء آخر، يطالبنا ميكوتشي بأن نفهم بأنّ لا شيء فلسفيّاً في الموضوع. كلّ ما هنالك هي النّقود ذاتها ــــ الأوراق والمعادن وأرقام الحسابات ــــ هي ما نعمل ونشقى لأجله، ونكذب لأجله، ونتقاتل عليه. حين نفهم طبيعة الأمور، كما هي، عندها يصبح تغييرها ممكناً.
المشكلة في «ميتافيزياء الرأسمالية»، مجدداً، ليست أنّها «نظرية سيئة»، فهذه أضرارها محدودة، بل في أنّها (كونها تدّعي تمثيل الواقع والتنبؤ به) تنتهي الى التحكّم بالبشر والحيوانات والنّقود والأشياء، وترسم لنا اسلوب حياتنا، وجداولنا اليومية، و»قيمتنا» في المجتمع، بل وعلاقتنا بأجسادنا وعقولنا. ولكنّ هذا «البرنامج» ــــ الذي يدير العالم اليوم ــــ فقيرٌ، ومحدودٌ، ويغرّبنا عن الطبيعة، وهو ــــ بحسب ميكوتشي ــــ السبب الرئيسي لبؤس الفرد والجماعة.
حين نقد الماركسيون الاقتصاد السياسي «البرجوازي»، لم يتوصّلوا الى نقدٍ لـ»الاقتصاد السياسي» ككلّ، بفئاته النظرية الأزلية وفلسفته الديالكتية، بل ركّبوا نقداً ــــ قوياً ومقنعاً ــــ للرأسمالية من داخل منظومة الاقتصاد السياسي نفسها؛ فلم يكتفوا بقبول «التنظيرات» التي خرج بها الاقتصاديون الليبراليون (كالقيمة والسوق)، بل هم ــــ عبر استخدامها ــــ جعلوها «مادية» وأزلية و»حقيقية» أكثر ممّا هي عليه في النظرية «البرجوازية». يكفي أن نقرأ نصوص الخبراء السوفيات وكيف خططوا للاقتصاد الاشتراكي. خلال الحرب الباردة، يكتب ميكوتشي، حين كان الاقتصاديون الأميركيون منهمكين في «التحكم» بالرأسمالية، وخلق شبكة من التنظيمات الكابحة، ومراكز قرار مركزية، ومنع الرّبح من التحول الى هدفٍ وحيد لشركاتهم (عبر الضرائب وغيرها)، كان الاقتصاديون السوفيات يجهدون لإدخال منظومات سعرية الى اقتصادهم، وخلق حوافز ربحية، وإدارة الانتاج عبر برامج حسابية «تقلّد» عمل السّوق. بمعنى آخر، لم يكتفِ السوفيات باعتبار «الأسعار» و»السوق» أنّها نماذج نظرية صحيحة على الورق فحسب (وهو ما قد يجد تشكيكاً حتّى في صفوف الليبراليين)، بل فهموا هذه الفئات «التنظيرية» على أنّها أمور مادّية، حقيقية، تعمل دائماً كما يجب، ويكفي إدخالها الى النّظام الاشتراكي حتّى تؤدي دورها بشكلٍ اوتوماتيكي ومثالي.
ماذا عن البديل؟ وكيف نكتشف «الطبيعة» ونتّصل بالواقع بلا حُجُب؟ هنا يصبح شرح ميكوتشي أقلّ وضوحاً، وهو يعد باستفاضة في كتبٍ قادمة. من الصّعب أن نشرح، في سطورٍ، ما يقصده الكاتب الايطالي عن أن «نحسّ» بدلاً من أن نعقل، وأن نحترم الطبيعة كما هي، وأن نفهم الواقع بلا تنظير. ولكن ميكوتشي يعدنا بأنّ التّحرّر، في جانب أساسيّ منه، لا يحتاج الى عقلٍ فائقٍ أو تدريبٍ أو تعلّم، بل هو في سهولة أن تفتح قلبك وعينيك وتنظرَ.

رأي

عدد ٢٩٦٣ الجمعة ١٩ آب ٢٠١٦